الاتجاه السياسي الذرائعي (البراغماتية)

معنى البراغماتية ومبادئها :-

هي اتجاه فلسفي يتركز بالربط بين التطبيق والنظرية، وتوصف بـ (العملية) اذ ان النظرية يتم استخراجها عبر التطبيق.

المصطلح لغوياً : يعود الأصل اللغوي للبراغماتية إلى الكلمة اليونانية «pragma» وتعني العمل أو (مسألة عملية)، هذا وقد استعار الرومان المصطلح واستخدموا عبارة (progmaticas), وقصدوا بها (التمرس)، وخاصة في المسألة القانونية ، أما النشأة أو الظهور الحقيقي لها فقد كان في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث لقيت هناك انتشاراً لم تصادفه أي فلسفة أخرى.

الى الفلسفة البراغماتية يرجع الفضل في تطور الاقتصاد ومناهج البحوث العلمية والتربوية في الولايات المتحدة الامريكية بالخصوص ،وتعزيز الروحية (العملية) الحيوية في اوساط سياسييها حتى اضحت منهجا سلوكيا وفلسفة تلائم الواقع والحياة في امريكا ولاتزال البراغماتية فلسفة امريكية وطنية خالصة تهدف الى خلاصه من التبعية الى الفكر الاوربي .

فهي المذهب العملي النفعي الذي تمثل في فلسفة المجتمع الرأسمالي الامريكي، وهي التي دعت الى استخدام الاساليب العلمية في اطروحاتها النظرية، فهي في الخلاصة فلسفة مادية واقعية تعارض وبقوة مذاهب المثاليين وطروحاتهم

ان البراغماتية تصدر حكمها على الفكرة (الفكر) وذلك من خلال نتائجها ومن خلال الممارسة (Practice) لا من خلال مضمونها الكامن فيها، فالممارسة هي الفيصل في الحكم على قيمة ونفعية اي فكر، مذهب، دين، نظرية او علم..

هذا وتتمركز رؤية البراغماتية الفلسفية عموماً حول مجموعة معطيات أهمها:

1- لا يمكن التوصل إلى معاني الأفكار، وبالتالي لا يمكن تفسيرها أيضا، إلا من خلال النظر إلى النتائج المترتبة عليها عبر الممارسة. كما أنه لا يمكن تحديد المعتقدات أو تبرير التمسك بها، إلا إذا أخذنا في عبن الاعتبار النتائج العملية المترتبة على الإيمان بهذه المعتقدات ذاتها .

2– الحقائق النظرية ثانوية إذا ما قورنت بالممارسة العملية، فالحقيقة وفقاً للبراغماتية، ما هي إلا الحل العملي والممكن لمشكلة ما . كما أن المبرر الوحيد للإيمان بأي شيء، هو التمسك به والعمل وفقاً لما يجعل الفرد في وضع أفضل مما لو كان لم يتمسك به.

3 -إن الحقيقة متغيرة، والفكر ما هو إلا مرشد لكيفية تحقيق المصالح والوصول إلى الأهداف.

4– إن المعرفة بكل أنواعها ما هي إلا عملية سلوكية تقييميّه للأوضاع المستقبلية، وإن التفكير يهدف عن طريق التجربة إلى التنظيم والتخطيط والتحكم في الخبرات المستقبلية .

5 - التأكيد على أهمية الخبرة ودورها الإيجابي تجاه المعرفة.

6 - رفض وجود أشياء خارقة للطبيعة تتحكم في مقدرات العالم، وكذلك رفض المعايير المطلقة والأزلية للمعتقدات والقيم، وإحلال معايير أكثر مرونة ومحدودية محلها.

7 - ضرورة عدم الفصل بين الفكر والحركة، وبين العلم المحض والعلم التطبيقي، وبين الحدس والتجربة.

8– على المستوى السياسي، يرى المفكرون السياسيون البراغماتيون، ضرورة عدم الفصل بين المصلحة الخاصة والعامة، ويؤمنون بالمذهب الفردي، ويرفضون التسلط والشمولية.

9– أهم ما في الفلسفة البراغماتية هو تركيزها على الخبرة والممارسة والفكر العملي في حل المشكلات، وخدمة المجتمع الديمقراطي، وتبني مبدأ المشاريع كوسيلة من وسائل التعلم .كما تؤكد على ضرورة تجاوز الماضي، وأن التعليم أحوج ما يكون إلى ثقافة اليوم والغد ,ويأخذ منها على قدر الحاجة للحياة الفاعلة المفعمة بالخبرات الناجحة.

10 -إن الفلسفة البراغماتية تجد جذورها في العقل العملي لكانت، وفي تمجيد الإرادة لشوبنهور، وفي فكرة البقاء للأفضل لدارون، وفي النظرية النفعية التي تقيس الخير بالنظر إلى مدى نفعيته. وهي نظرية أمريكية شكلت رد فعل للمفكرين الأمريكان تجاه الفكر الغربي ,وبخاصة الفكر الميتافيزيقي منه .

تقبل المجتمع الامريكي في العموم البراغماتية بكونها مذهبا عمليا ونفعيا لا يتعارض مع النظام الرأسمالي الامريكي القائم على مبدأ المنافسة الحرة بين الافراد.. ولما كانت البراغماتية لا تولي الاهتمام الى فهم الواقع لذاته او الدخول في صراعات وسجالات حول (اسبقية الفكر على الواقع) فقد وضع البراغماتيون هدفا لهم هو (فهم الواقع لاستغلاله والسيطرة عليه، سعيا وراء المنافع التي ستعود عليهم من ذلك)..

ثلاثة من المفكرين الامريكان هم الذين ارسوا اسس الفلسفة البراغماتية ولكن ليس بشكل جماعي فكل واحد من الثلاثة وصل اليها بشكل مستقل عن الاخر وهم :-

تشارلس ساندرز بيرس ١٨٣٩ ـ ١٩١٤

وهو من المشتغلين في الفلسفة، عمل محاضرا في جامعة هارفرد الامريكية، له اهتمامات بعلم المنطق والرياضيات وعلم الاخلاق وله يعود الفضل في اطلاق مصطلح البراغماتية على مذهبه الفلسفي الجديد.

ان المنهج الذي اتبعه بيرس في فلسفته هو المنهج العلمي فقد اخضع نظرية المعرفة الى هذا المنهج، وحتى التفكير الانساني اخضعه الى نفس مقاييس معامل العلوم الطبيعية (فالفكرة في المعمل تقبل اذا كانت لها نتائج عملية يمكن لكل انسان ان يشاهدها، فكذلك المعرفة لا تستحق هذا الاسم الا اذا كانت لها نتائج عملية يمكن لكل انسان ان يشاهدها).

بيرس صاغ فلسفته على الشكل التالي والذي عرف بمبدأ بيرس (ادخل في حسابك دائما اي نوع من الاثار التي يمكن ان تكون موضوع الملاحظة الفعلية العملية حينما تدرك اية فكرة او اي تصور)..وينبه بيرس الى (ان فكرتنا عن اي شيء، هي فكرتنا عن الاثار الحسية المترتبة عليه)، اي ما خلفته الفكرة من تأثيرات محسوسة ، لقد تركت الفلسفة التجريبية تأثيرها الواضح على فكر ومنهج البراغماتيين ومنهم بيرس الذي تناول في بحوثه مشكلة المعرفة فعلى رايه فان (في عقولنا توجد افكار متعددة لها مقابلات مادية في العالم الخارجي ومعيار صدق هذه الافكار او كذبها يكون في مدى تطابقها او عدم تطابقها مع مقابلاتها الخارجية).

اما عن وجود افكار من نوع اخر داخل عقولنا لا يوجد لها مقابل مادي للحكم على هذه الافكار هل هي صادقة ام كاذبة، فما هو وجه الحكم عليها صدقا او كذبا؟

بيرس اجاب على هذا السؤال بان الحكم عليها صدقا اذا كانت: (تمهد للقيام بسلوك عملي وتهدف الى تحقيق منفعة فعلية) فعكس هذا الشرط تكون الافكار حينها غير صادقة اي (كاذبة)

وفي كتاب: "كيف نجعل أفكارنا واضحة ، يستخلص شارل سندرس بيرس من رؤيته للمعرفة، نتيجة منهجية مهمة؛ فالأفكار لا يمكنها أن تتطور إلا إذا اتخذت صياغة إجرائية، تسمح باختبارها، وبالتالي توجيه العمل. فالقيمة الحقيقية لنظرية ما، تقاس بمدى ما تقدمه من قضايا قابلة للتحقق تجريبيا، وقوة معرفة ما، مرتبطة بنجاعة الأعمال التي توجهها بدقة.

ويليام جيمس ١٨٤٢-١٩١٠

ظل الفكر البراغماتي الذي ابتدعه تشارلس بيرس زهاء العشرين عاما بعد وفاته مغمورا الى ان جاء وليم جيمس وبعث الروح فيه من جديد ، وهذه السنوات العشرين شهدت التطور السريع في الاسس الاقتصادية والسياسية التي يقوم عليها النظام الامريكي ، إذ تحول الاقتصاد من مرحلة المنافسة الحرة الى مرحلة التركز في مجموعة احتكارية وقامت السلطة الحاكمة بالتدخل لظهور امريكا الجديدة .

ولد وليم جيمس في عام ١٨٤٢ بمدينة نيويورك وله خمسة اخوة كان اكبرهم وكانت اسرته متدينة وثرية مما مكن جيمس من السفر والتجول حول العالم ، درس الطب في جامعة هارفارد ، كان واسع المعارف في ميادين علم النفس والفنون ، وكانت اول نتاجاته العلمية كتابه (اصول علم النفس) ثم توجه نحو التفكير الفلسفي الصرف فاخرج كتابه (ارادة الاعتقاد) ثم القى العديد من المحاضرات في الجامعات الأمريكية فظهرت تلك المحاضرات على شكل كتاب باسم (البراغماتية) عام ١٩٠٦.

ان الفكرة الرئيسية في فلسفة وليم جيمس هي نفس الفكرة عند أنصار الفلسفة البراغماتية وهي الفكرة الخاصة بتحديد مفهوم (المعنى) وهو ان ما يجعل للعبارة معنى كونها ذات نتائج علمية تترتب على تنفيذها ، اما اذا كانت امامك عبارة لا تدري كيف تحولها الى تجربة محسوسة لديك كانت تلك العبارة بلا معنى ، ومن زعم ان لها معنى فانه مخدوع. يتفق ويليام جيمس مع شارل سندرس بيرس، في جزء كبير من الأفكار، وسيجعل من نفسه عبر محاضرات، ومطبوعات وكتب، نشرت بالولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، ناطقاً رسمياً بها. وقد نجح بهذه الطريقة، في

استقطاب عدد من الأتباع لمذهبه، غير أن هذا التبسيط، لم يتم دون إعادة صياغة وتعريف الأطروحات الأصلية لشارل سندرس بيرس، ففي الوقت الذي نجد فيه شارل سندرس بيرس، كمفكر صارم بقدر كبير، يعمل دون هوادة على مراجعة، وإعادة النظر في تفكيره؛ نجد ويليام جيمس، مهتماً بنشر أطروحاته، أكثر من استكشاف قضايا البراغماتية.

لقد تاثر بـ (داروين) ،مما جعله يعطي عن الفكر صورة نفعية وتكيفية، ويطبق هذا التصور عن الأفكار، سواء على المعارف الفيزيائية عن العالم، أو على التصورات الأخلاقية والدينية؛ فليس هناك "خير" مطلق، مثلما لا توجد هناك حقيقة "نهائية"؛ فالأفكار الأخلاقية هي دعامات للعمل. فمن خلال نجاعتها، يلزم أن نقيس قيمتها.

جون ديوي: ١٨٥٩-١٩٥٢

في الفترة التي كان فيها ويليام جيمس وشارل سندرس بيرس، يبنيان البراغماتية ، كان هناك مفكر، آخر هو جون ديوي يبتكر فلسفة قريبة سماها "الأداتية" ، وترتكز على نفس المبادئ: نقد الميتافيزيقا، دور التجربة في تكوين الأفكار، رفض الدوغمائية (هي التعصب لفكرة معينة من قبل مجموعة دون قبول النقاش فيها أو الإتيان بأي دليل ينقضها لمناقشته أو كما هي لدى الإغريق الجمود الفكري. وهي التشدد في الاعتقاد الديني أو المبدأ الأيديولوجي، أو موضوع غير مفتوح للنقاش أو للشك.)، وقبول التعددية على المستوى الأخلاقي، والسياسي والتربوي. فمثل شارل سندرس بيرس وويليام جيمس، كان جون ديوي فيلسوفاً معطاء، درس سنة ١٨٩٦ الفلسفة، في جامعة شيكاغو، ثم أضاف درساً في علم النفس التجريبي، وآخر في البيداغوجيا؛ وأنشأ بعد ذلك أول مدرسة تجريبية، سميت فيما بعد: مدرسة ديوي؛ لقد كان بالفعل فيلسوفاً موسوعياً، ملاحظاً ومنتبها للعالم المعاصر، ومسافراً كبيرا؛ وفضلا عن ذلك، كان ديوي مثقفا ملتزماً، وأصبح مدافعاً صلباً عن حرية الرأي والديمقراطية والتقدم الاجتماعي، شارك في المناظرات السياسية الكبرى لعصره، وفي كتابه "كيف نفكر؟" ١٩١٠، يدافع جون ديوي عن فكرة (في الوقت الذي يخضع فيه الحيوان لغرائزه، يحتاج الانسان إلى تفكيره الذي يعتبر مساعداً للعمل، فهو يحلل الوضعية (إنتاج المعطيات)، ويصوغ الفرضيات (الأفكار)، يجربها (عملياً ونظريا)، يعالج النتيجة، وحينما تكون غير مناسبة، عليه إيجاد جواب آخر، وعلى هذا النحو، تولد وتعيش، وتموت الأفكار).

هذه النظرية التجريبية للفكر، كانت لها انعكاسات على تصوره للتربية؛ فالتعليم يجب أن ينبني على أساس هذا النموذج لـ "الفكر المختبري."

فكل شيء ينطلق من تصوره للفكر، باعتباره مواجهة بين الفرد والمشاكل. إن المدرسة ليست إعداداً للحياة، بل هي الحياة نفسها، كما أشار إلى ذلك في كتابه: "القانون البيداغوجي."

إن المدرسة إذن، مختبر يجب بناؤه على أساس التجارب، والأسئلة الأجوبة التي يطرحها الطفل على نفسه.(Learning by doing)

وعلى المستوى السياسي، فبراغماتية جون ديوي تقود إلى تبرير الديمقراطية، لا بوصفها نظاماً مثاليا، بل بوصفه نظاماً يسمح بتصحيح أخطائه وتجريب حلول تم تغييرها عند الحاجة. إن المشاكل الاجتماعية مثلها مثل التفكير لا يمكن أن تعالج انطلاقا من نموذج مسبق؛ فاعتماد حلول جديدة يجب أن يحصل حسب الزمن ومواجهتها بالنقاش، فالتجربة والنقد ومقارعة الأفكار تحتل مكاناً بارزا ضمن هذا التصور البراغماتي للسياسة.

انحطاط وتجدد البراغماتية:

بعد شارل سندرس بيرس وويليام جيمس، وجون ديوي، نشأ جيل جديد من المفكرين البراغماتيين في مجالات مختلفة:

المنطق مع كلارنس لويس (١٨٨٣– ١٩٦٤)، السيميولوجيا مع شارل موريس (١٩٠١– ١٩٧٩)، الفلسفة السياسية مع سيدني هوك (١٩٠٢– ١٩٨٩.(

وفي أوروبا لم يكن للبراغماتية صدى عميق، إذ كان الفكر الأوروبي عموما مناهضاً لكل نظرية تبدو نفعية، أداتية ومبتذلة...، إذ لم يتردد برتراند راسل في إصدار حكم نهائي "إن الخاصيتين اللتين اعتبرهما هامتين هما محبة الحقيقة، ومحبة القريب. واعتبر أن محبة الحقيقة أصبحت باهتة في أمريكا بسبب الروح التجارية التي تعبر عنها البراغماتية فلسفياً، كما أن محبة القريب تعوقها الأخلاق الطهرانية."

ابتداء من الثمانينيات، انبثقت براغماتية جديدة في الولايات المتحدة الأمريكية، ويعتبر ريشارد رورتي (ولد سنة١٩٣١)، المدرس في جامعة فيرجينيا المؤسس الرئيس لهذا التجديد بدون

منازع وباعتباره أحد الأسماء البارزة في الفلسفة الأمريكية، فقد جعل من نفسه مدافعاً عن الإرث البراغماتي الذي يؤوله بطريقة مرنة؛ فخلال سنوات قليلة استطاع أن يستقطب جزءاً وافراً من النقاش الفلسفي الأمريكي حول أطروحاته، وكسب بعض الصدى في أوروبا.

فعن ويليام جيمس وشارل ساندرس بيرس وجون ديوي، أخذ فكرة عامة تقوم على عدم وجود حقيقة مطلقة، سواء في الفلسفة أو العلم أو الأخلاق. فالبراغماتية تقترح نظرة سياقية أو أداتية للفكر، ذلك أن ما يميز العلم ليس هو قول "الحقيقة"، لكن على العكس من ذلك تقديم فرضيات مقبولة سيتم دحضها في يوم ما؛ "فالحقيقة تعيش بالافتراض" كما يقول ويليام جيمس. لكن رورتي يدافع عن البراغماتية خصوصاً في مجال الأخلاق والسياسة.

برى رورتي أن فعل الخير هو سلوك حر لا يجد مبرارته إلا في ذاته، والتضامن بين البشر لا يمكن أن يتأسس على طبيعة إنسانية أو عقل كوني. فالفلاسفة يضيعون وقتهم في البحث عن حقيقة نهائية تجمع كل العقول. فالتضامن والعدالة والأمل في عالم أفضل لا يمكن أن ينشأ إلا من فعل حر. فإذا ما نشأ كمال مطلق للعدالة والتضامن، فإن ذلك نابع من اختيار واعٍ للبشر، تدعمه أحلام الشعراء والروائيين والحالمين الذين يبينون إمكانيته وليس عن طريق البرهنة الفلسفية التي تثبت ضرورته.

فبوصفها نظرية للمعرفة تعرضت البراغماتية لمجموعة من الانتقادات، حيث تمت مؤاخذتها خاصة كونها تناقض نفسها وكونها تفتقر للانسجام الداخلي. وفضلاً عن ذلك يؤكد الملاحظون أنه لا وجود لمذهب براغماتي موحد، بل هناك عائلة من الأفكار تجمع مؤلفين تتعارض أطروحاتهم أحياناً. فشارل سندرس بيرس كان يرفض تصور البراغماتية لفلسفة جديدة، إذ كان يرى فيها على العكس من ذلك منهجية تدعو إلى التخلص من الأفكار الفارغة والعامة ومحاولة صارمة لصيغة قضايا قابلة للتحقق، وهي (البراغماتية) بالنسبة لرورتي Rorty وضعية جد أصلية ، ودعوة إلى استعادة حرية التفكير في مواجهة بنائي الأنساق. والحقيقة، فإن الإغراء الحالي لبراغماتية رورتي راجع إلى نعومة الأسلوب الذي يميز كتاباته وميله إلى التهكم أكثر من صرامة أفكاره.

نقد البراغماتية :-

على الرغم من كون البراغماتية فلسفة قدمت للعالم اسسا لحفز الامل وتحدي العجز والنظر الى المستقبل ، وبعث الشجاعة في نفوس الناس لإخضاع افكارهم الى التجربة وتتبع النتائج العملية الناتجة عنها ، الا ان هناك العديد من الملاحظات النقدية الهامة التي لها علاقة بالتناقضات التي وقعت بها الفلسفة منها الاتي :_

أ- ان البراغماتية وان نادت بالقطيعة مع الماضي ، الا ان مفكريها في انطلاقتهم الفكرية يعودون الى كبار الفلاسفة القدامى ولعل اهمها فلسفة ابيقور (٣٤١-٢٧٠ق.م) وتلامذته في الابتعاد عن القول التقليدي بالصدق المطلق أو الحقيقة المطلقة ، ذلك ان الحقيقة الفلسفية بالنسبة لهم هي تلك التي تحقق وظيفة عملية لإصلاح حال المعتقد بها ، كما ان القديس اوغسطين قد ساهم بنصيبه في الملاحظة والتجربة التي هي أساس المذهب البراغماتي وان لم يكن احد منهم براغماتيا وهذا ما يثبت زيف الادعاء بالجدة والحداثة .

ب- ان جعل المنفعة معيارا للصدق والحقيقة يجعل المجتمع غابة من الوحوش الضارية التي يأكل بعضها بعضا لتحقيق التفوق والغلبة والنجاح بصرف النظر عن الهدف ، فضلا عن جعل المنفعة معيار للصدق يجعل إرادة الانسان لا تتفق على تحقيق القيم الفاضلة كالحق والعدل والايثار ، الأمر الذي جعل من الفلسفة البراغماتية ملهمة للنظام الرأسمالي القائم على مبدأ المنافسة الحرة التي استفحلت اخطارها عند التطبيق في عدد من الجوانب اهمها :-

أولا – اللاأخلاقية : وهي تفيد الرأسمالي في تعامله مع الغير فالحق لذاته والباطل لذاته بصرف النظر عما يترتب عليهما من وجوه النفع والضرر .

ثانيا – الارتباط الوثيق بالحرب عندما تكون نتائجها لصالحهم بغض النظر عن الممارسات اللاإنسانية والاذى والضرر الذي يقع جراء الحرب.

ثالثا- الانحرافات السلوكية كسلوك الاجرام والقتل وغسيل الاموال وتجارة المخدرات وفتح الباب للمنافسات والصراعات .